شخصية العدد:

» مـؤنس الـرزاز

● أ.د.حسن عليان

قامة مؤنس الرزاز (1949–2002) الشخصية والأدبية والفنية بلا حدود مهما طال الزمن، فإرثه الباقي خير حافظ لهذه القامة على الرغم من قصر حياته التي لم تزد عن خمسة عقود، استطاع فيها مؤنس أن ينجز أحد عشر عملاً روائياً بالإضافة إلى مجموعتين قصصيتين وعدد من الترجمات ومقالاته النابضة بمخبوء فكره وثقافته ورؤيته للواقع العربي المزري، بتراكماته خلال القرن العشرين التي لا تبشر بخير.

كانت مقالاته تعبيراً دقيقاً عن مكونات نفسه وإشراقات روحه، وسجلاً لهمومه وهموم مجتمعه وأمته وآلامها وأمانيها وأحلامها الضائعة بأسلوب دال بخصوصيته، ومرآة حقيقية لبانوراما وعيه القومي الذي يتطلع إلى وحدة عربية تجمع شتات هذه الأمة، وتحول دون تمزقاتها وعبثيتها وكياناتها الممزقة إلى كانتونات، أرادها الغرب والطامحون بحكم على حساب قيم الشعوب وتراثها ومستقبلها وتاريخها، وتحول مستقبلاً دون هذه الانحسارات والخسارات والتراجعات في المدّ القومي، وفي طموح الوحدة التي عصفت بالأمة، وأفقدتها توازنها وعناصر قوتها.

ومن يتمعن في مقالات مؤنس يجد أسلوب السخرية المرّة من الواقع المجهض لعالمه العربي، فقد كتب مقالاً بتاريخ (1998/1/6) يقترح فيه على الأنظمة العربية أن تسارع للضغط على نتنياهو كي يقدم تنازلات لزميله ديفيد ليفي، حتى يعود ليفي عن استقالته، فاستقالته ليست شأناً اسرائيلياً خالصاً لا علاقة لهم به، يقول في أحد مقاطع المقال: «أرجو ألا يُزعج هذا المطلب الحكومات العربية كما أرجو أن لا تحطّ هذه الحكومات عقلها في عقلي؛ لأنني فقدت عقلي أصلاً منذ كارثة الخليج، ولا يوجد في رأسي سوى صفير ريح تلعب في الخواء». ويقول في مقاله بتاريخ (1998/1/24) النازف بحزنه الشديد مما آلت إليه الأوضاع العربية من ضعف وهو يقول: «نحن نعيش في العالم العربي في مناخ كاريكاتوري، هزائمنا كاريكاتورية، وانتصاراتنا كاريكاتورية، وسلام الشجعان أكبر مثال على العقلية الكاريكاتورية العربية».

جامعة فيلادلفيا

لقد عبّر مؤنس الرزاز عن خيبة أمله في قادة الأمة وشعوبها بضياع الوحدة، الذين لم يستفيدوا من تجربة السوق الأوروبية المشتركة وما آلت إليه وحدة اليورو وغير ذلك.

إن مرارة الواقع ورؤية مؤنس له شكّلت عالمه الروائي والقصصي، هذا الشكل الذي وضع مؤنس في مقدمة سلّم الرواية العربية.

الإرث النضالي والحلم القومي بالوحدة والاغتراب عن النفس والذات

إنّ إرث مؤنس النضالي الذي كان مسكوناً به، والذي تألّق فيه الحلم القومي الوحدوي حيناً، وكيف لا، ووالده منيف الرزاز الذي أمضى حياته وأفناها في محاولات تحقيق حلم الوحدة العربية، وهو القيادي البارز في حزب البعث دون كلل أو ملل، على الرغم من الإقامة الجبرية التي انتهى إليها، واستشهد في سبيل حلمه في ظل هذه الإقامة. ويجسد ذلك في روايته «اعترافات كاتم صوت». لقد دفعته خصوصية التجربة التي عاشها مع والده، وتناقضات العالم العربي وأحلامه إلى الكتابة الروائية حتى يحقق بها ما

عجز عنه كثير من العرب، وهو وضع الحقائق التاريخية في قوالب فنية، منحازاً إلى الخيار الديمقراطي، وإلى منطق الحوار العقلاني وإمكانية التعايش بين الأفكار والاجتهادات.

لقد رصدت «الذاكرة المستباحة» و«اعترافات كاتم صوت» تمزق النفس العربية وتقلّص المدّ القومي، وانحسار الأحلام بعد خروج مصر من دائرة الصراع العربي الصهيوني بفعل معاهدة كامب ديفيد الأولى، وما تلاها من نتائج سلبية على صعيد الفكر والسياسة، ومن تقلبات في الرؤية والمواقف والسلوك، ومن انسحاب الفرد بآماله إلى الظل بعد أن شعر بإجهاض أمانيه وأحلامه المشروعة في مستقبل أمة فاعل، وبالتالي اغترابه عن الذات.

> لقد رصدت «الذاكرة المستباحة» و«اعترافات كاتم صوت» تمزق النفس العربية وتقلّص المدّ القومي، وانحسار الأحلام بعد خروج مصر من دائرة الصراع العربي الصهيوني بفعل معاهدة كامب ديفيد الأولى، وما تلاها من نتائج سلبية على صعيد الفكر والسياسة

لقد انفصل الفرد في عملي مؤنس عن مكوناته الفكرية والثقافية وعن ذاته. ولا شك أن العقل والكليّة أساس لأي شيء عقلي وبافتقادهما يغترب الإنسان عن نفسه وعن ذاته وعن طبيعته الجوهرية فيه إلى حدّ التنافر مع ذاته عندما يسلّم للآخر بكل شيء، فيفتقد بالتالي الإرادة والخصوصية، ويصبح متموضعاً للآخر بعد أن يفقد هويته، وبعد أن يصبح متشيأً؛ فالاغتراب عن الذات ينشأ – كما يرى هيجل – بفعل التنافر بين مكانة الفرد ووظيفته وعمله، وبين طبيعته الجوهرية ومكوناته الذاتية، أي التسليم بالخصوصية لمصلحة الواقع الاجتماعي، ويراه فروم في شعور الفرد بتميز ذاته عن الآخرين، وذلك عندما يعي نفسه كياناً منفصلاً عن الآخرين، وكأن الآخرين وحدات قائمة ومستقلة ومنفصلة عنه.

إن يوسف شخصية رواية «اعترافات كاتم صوت» يعدّ نموذج الشخصية المزدوجة، فهو عميل يبيع نفسه وقوته وخبراته لجهات متعددة ومتناقضة، كما أنه يرفض الامتثال لأنه لا يحبه بعد أن تشيئأ على كرهه، فالمنطق والنظام عنده «ضدّان للحياة، لأن الحياة ثورة دائمة ضد المنطق وتمرد مباغت على الأنظمة التي يؤمن الناس بخلودها. لقد تشيأ يوسف بعد أن فقد المعايير الأخلاقية التي تربطه بأواصر المجتمع، وبالتالي بأواصر الأمن والسكينة والحرية. لقد أحسّ أن حياته فائض قيمة بعد تحوله إلى قاتل مأجور للمنظمات المتصارعة في بيروت، لذا لم يجد مانعاً من تأجير هذا الفائض إلى من يحسن استغلاله، وإلى من يدفع أكثر.

ويقدّم لنا مؤنس الرزاز نموذجاً لضياع الإنسان في مجتمعه في رواية (الذاكرة المستباحة) فضياع عبد الرحيم الأمين في الرواية لم يأت من فراغ، إنما أفرزته عوامل قوامها الإبعاد واليأس والتمزق ومحاولة إثبات الذات ونسيان الذاكرة التاريخية، فعبد الرحيم الأمين نموذج لحالة الاغتراب عن المجتمع بسبب ضياعه بعد أن كبر في السن، وبعد أن كان حاضراً في فكر الأمة وسلوكها، وبعد أن كان يشار إليه بالبنان وبأنه المثال والقدوة والنموذج والرمز الوطني، فهو – والده – الأمين العام لحزب البعث العربي. ويسلط مؤنس الضوء على صراع الأجيال في الرواية، فالقيادات الشابة بطموحاتها وآمالها وببناها الفكرية المتحولة أحياناً تعمل على إقصاء القيادات القديمة، وكذلك يعمل رجال الانقالابات العسكرية والأحزاب لتصورها عجز هذه القيادات القديمة عن المشاركة في بناء المجتمع وتطوره.

الموقف الاستعلائي ونظرة الدونية للآخر:

في رواية (جمعة القفاري) نجد شخصيتين هما جمعة القفاري بأوجهها المتعددة والمتباينة والمتناقضة، وشخصية (داود)، أراد بهما مؤنس ليرسم شريحة من المجتمع بأوجهها المتعددة والمتنافرة يمكن أن تكون نموذجاً لكثير من فئات المجتمع. وقد سلط جمعة القفاري الضوء، بنظرته الاستعلائية، على المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية وأنماط السلوك، وكذلك بأقنعته المتعددة على فئة السماسرة وتجار الأراضي والمثرين بطرق مشروعة وغير مشروعة، دون أن يكون لها سند أو أرضية صلبة يمكن أن تقف عليها بثبات، وهي تفكر أو تعمل أو تتصرف في ظل التحولات الاجتماعية، وفي ظل التمايز الطبقي في المجتمع الأردني النموذج للمجتمعات العربية الذي عكسته وجوه الرواية بأقنعتها المزيفة.

وقد أبرز مؤنس التناقض عبر الأقنعة المتعددة لجمعة القفاري أو لغيره من الأسباب التي أدت إلى إخفاق التعايش مع المجتمع، وأهمها أنه ينتمي إلى عالم آخر مختلف بمثاليته التي لا تأبه بالمتغيرات والمستجدات وأشراط الحياة لمن أراد أن يستمر في حياته مطمئناً دون قلق أو تشتت، ووفق نظرة المجتمع للحياة الطبيعية في ضوء مثاليته الفكرية، مما أدى إلى اعتزاله المجتمع. وقد جسّد فاضل الغلباوي عزلة جمعة عن المجتمع رغم أنه يعيش في رحمه يقول له: «إذا فتح التفكير عقلك أغلق حواسك».

الاغتراب عن الثورة والحرية والحضارة:

ولم تخرج رواية «متاهة الأعراب في ناطحات السحاب» عن حقل

الاغتراب عن الثورة وعن الحرية في ظل القمع الفكري، وكبت حرية التفكير والتعبير لتسيّد دولة المخابرات مقاليد الأمور في الوطن العربي، وسلبية الأمة، وتسيّد البترول سلم السياسة ومحاربة الثقافة العربية في ظل تسيّد الثقافة الأميركية، والانتصارات الوهمية؛ لشلل الأمة الفكري والقوة الفاعلة. فالناس يتوقون للحركة لكنهم عاجزون عن فهم ظل كائنات قُدّت من حجر، لأنهم محاصرون في شرنقة العجز.

وكذلك اغترابها عن سلاح العلم والتكنولوجيا والتصنيع في ظل سيادة القيم الاستهلاكية والسوق الحرة المفتوحة للآخر الغربي والشرقي وكذلك اغتراب الفرد الحضاري في ظل زخم صراع الحضارات الأمر الذي أدى إلى اغترابه عن هويته القومية وعن وجوده المفترض، وعن الأخذ بأسباب الحياة العصرية الحديثة؛ فهو متمركز في بؤرة اللاشعور الجمعي المتقوقعة على حوصلة التراث، الذي يجب تعريته في ظل مفردات العلم وأدواته ومفاهيمه.

الهروب من استحقاقات المجتمع، والفسيفسائية السياسية ودهاليزها:

أما روايته الشظايا والفسيفساء، فقد جاءت عبر الشظايا والتقارير التي شكلت مادة الرواية في جزئي الرواية، وهما: الشظايا ثم الفسيفساء. وقد سلّط مؤنس الرزاز الضوء على ضرورة قتل الوقت بشيئين هما السياسة وقتلها بالخمر، وضرورة التوجه إلى إعمار البنى التحتية بدل البحث عن سفسطائية السياسة ودهاليزها، ويبين أن مدينة عمان بلا أصل، وكذلك كشف الغطاء عن أسباب هزيمة حزيران. وعن دور السينما والأطباق اللاقطة / الفضائيات، بمضامينها الخالية من أي دور ثقافي واستحالتها على التطبيق في ظل غياب الوعي والفكر والإرادة ولاستحالة الظروف الملائمة لها، وقاعدته أنه يجب البدء أولاً بالبناء والتعمير لبناء قاعدة صلبة، ثم الانتقال إلى مرحلة أعلى، وهكذا حتى يتم بناء المجتمع والأمة.

ولم يفت مؤنس الرزاز إلقاء الضوء على الطبقة البرجوازية مفرغة المحتوى، فهي متخلّفة لا ثورية، وكذلك على مجتمع الإشاعة في الأردن والتاريخ الرسمي المزور للأمة في الوطن العربي، وعلى العقلية العشائرية في إدارة السياسة والوظائف في ظل غياب الديمقراطية الحقيقية، التي تمنح الفرد حقوقه، ليصبح مواطناً منتمياً. وفي ظل التخلف بفعل عدم تحديث البنى الثقافية والفكرية المتوارثة خلاف المجتمعات الأوربية، مما أدى إلى تخلّف الفكر العربي وبعثرته، الذي يتميز بالجدل السفسطائي الذي لا يخرج برؤية أو قرار أو حتى بخطة يجتمع عليها القادة العرب. فهم يجتمعون ثم ينتهون إلى لا شيء رغم ادعائهم بأنهم يجتمعون لدراسة أحوال الأمة واتخاذ قرارات بشأن وحدة الصف. فالحكام والنواب والشخصيات في الوطن العربي تراهن دائماً على ضعف ذاكرة الأمة، وهي تنتقل من حزب إلى آخر ومن جهة إلى أخرى، ومن موقف إلى آخر في ظل مصلحتها الأنوية الحادة الفردية؛ فكل فرد يجيّر النضال لنفسه وفق مفهومه ورؤيته وممارسته، لأن الموقع ولا شيء غيره هو الأهم بالنسبة إليه.

> **"أبرز مؤنس التناقض عبر الأقنعة المتعددة لجمعة القفاري أو لغيره من الأسباب التي أدت إلى إخفاق التعايش مع المجتمع، وأهمها أنه ينتمي إلى عالم أخر مختلف بمثاليته التي لا تأبه بالمتغيرات والمستجدات وأشراط الحياة لمن أراد أن يستمر في حياته مطمئناً دون قلق أو تشتت"**

وكذلك بفعل أطباء الأمة غير المؤهلين لمداواة جراح الأمة وتطبيبها، في ظل نظرياتهم الحزبية التي عفا عليها الزمن. فالأحزاب ليس إلاّ وجاهة اجتماعية وعشائرية يستفيد منها المنتسبون إليها مادياً واجتماعياً.

ووفق هذه الرؤية فإنه طرح البدائل لهذه القيادة، فالشخصيات السياسية يجب أن تعدّ بالتأهيل لإفراز قيادات شابة جديدة في ظل رياح التغيير. وقد ألقى مؤنس الرزاز الضوء على قضايا اجتماعية

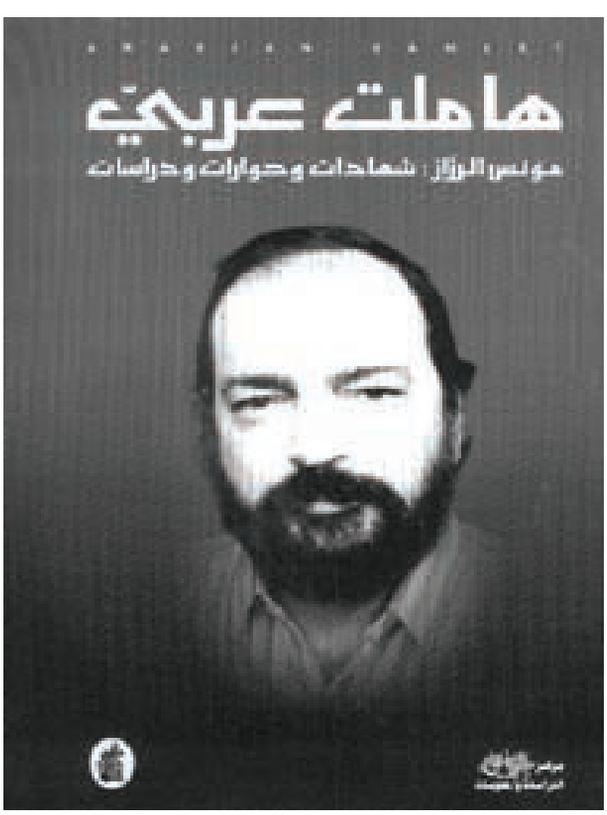

وإنسانية وسياسية وأخلاقية وثقافية وفكرية تؤرّق المجتمع.

ولعل مقدمة رواية «فاصلة آخر السطر» التي صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر عام 1995 تفي بالغرض، الذي صدرت الرواية لأجله. فقد لخّص فيه واقع الوطن العربي المأساوي على الرغم من وجود ملامح تنبئ بالأمل والتفاؤل، لكن غلبة الانهيارات وأشكال السقوط المتعددة حالت دون أن تتبوأ هذه الملامح مكانتها أو تأخذ دورها في بناء الأمة والوطن، يقول في الإهداء: «إلى انقلاب 14 رمضان، حرب حزيران، بيروت عام 1975، بيروت عام 1982، حرب الخليج الأولى والثانية، مدريد، حرب اليمن، عمّان الباحثة عن ملامحها، ملاحقات العنف المفرّغة، الدماء التي سالت هدراً، ضحايا سقطوا عبثاً، مفردات لغة التواصل المبتور.

إلى كل الأزمنة والأمكنة الحميمة التي ضربتها زلازل الخلط والالتباس وضياع اليقين، وتلاشي المسلمات والفوضى الرعناء، وغياب المعنى.

أما رواية سلطان النوم وزرقاء اليمامة فقد سجلت الواقع العربي الراهن وكابوس التخلف والانحطاط والهزائم المتتالية التي شكلت بنية العقل العربي ثم الاستسلام وبدايات التحرر الحقيقي على بدايات تغير بنية الفكر العربي.

> لم يفت مؤنس الرزاز إلقاء الضوء على الطبقة البرجوازية مفرغة المحتوى، فهي متخلّفة لا ثورية، وكذلك على مجتمع الإشاعة في الأردن والتاريخ الرسمي المزور للأمة في الوطن العربي، وعلى العقلية العشائرية في إدارة السياسة والوظائف في ظل غياب الديمقراطية الحقيقية، التي تمنح الفرد حقوقه

وعلى الرغم من هذه الرؤية فإن هذه الأعمال التي اتبعت تقنيات جديدة في بناء الأعمال الروائية لهي خير مؤشر على واقع الأمة، بمختلف أبعاده وزواياه ومضامينه ومؤشراته، بحساسيته الثقافية والفكرية والأيديولوجية إن جاز لنا التعبير باستخدام الأيديولوجيا، وكذلك بحساسيته النفسية التي عملت على اعتماد هذه التقانيات في بناء هذه الأعمال الروائية التي تتطابق وتشظي الفرد والإنسان والواقع القائم في الوطن العربي.

كتاب ثقافة المقاومة
من اصدرات جامعة فيلادلفيا